جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2

كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية **قسم التاريخ و الاثار**

مقياس : تاريخ بلاد المغرب من القرن التاسع ق. م الى القرن الاول ق.م

السنة الاولى ماستر : تاريخ و حضارة المغرب القديم

اعداد الدكتور : اونيس ميلود

السنة الجامعية 2020 – 2021

الاطار الجغرافي و التاريخي :

-تمتد نوميديا بناءا على رأي المؤرخين المعاصرين على رقعة واسعة من بلاد المغرب ، تمتد من وادي الملوية (الملوشة) غربا الى معابد (فيلينوس – (القوس بليبيا حاليا) السيرت الكبير شرقا ، أما الحدود الجنوبية الواقعة على اطراف جيتوليا فقد ظلت غامضة بسبب طابع هؤلاء الجيتوليين الرجل الذين يشعلون اراضي الهضاب الداخلية قبل الصحراء ، التي تفلت من سلطة الملوك النوميديين . هكذا يمكن القول ان نوميديا اصطلاحا تشمل اجزاء من ليبيا الحالية – تونس و كل الجزائر الشمالية و أطرافا من المغرب الاقصى حتى وادي الملوية و هي منطقة جغرافية متنوعة تشمل في نفس الوقت مظاهر الساحل و السهول و سلسلة من الجبال التلية .

مهما كان مصير النومديين الماسيل و المازسيل نلاحظ دائما اننا امام وحدة جغرافية و بشرية نسميها بلاد النوميد ، تغيير الحدود بلعبة الحرب و التحالفات الديبلوماسية " وكذا التاريخ السياسي المتقلب جدا للممتلكين ما هي الا عوامل ظرفية لا تغير شيئا من الحقيقة النوميدية

وخلافا للإطار الجغرافي الذي يبدو انه كان محددا بشكل جيد يبدو الإطار التاريخي أكثر تعقيدا و غموضا إذ لم تدخل مملكة نوميديا التاريخ في رأي البعض إلا بداية من القرن الثالث قبل الميلاد ، بينما نجد ذكر لملوك أهالي سابقتين لهذه الفترة ، وهو الأمر الذي يجعلنا نكتفي بمرجعيات كرونولوجية اصطلاحية لا ترتبط بأحداث تاريخية في تاريخ المملكة، وبالتالي يبدو في رأينا أن تاريخ تأسيس قرطاجة الذي يذكر فيه لأول مرة اسم ملك محلي وهو الملك هيرباص الذي طلبت منه عليسة أن بيعها قطعة أرض لبناء مدينة قرط حدشت هي مرجعية كرونولوجية تشمل دخول كامل بلاد المغرب التاريخ و ليس بلاد النوميد و حسب .

أما فيما يخص نقطة النهاية لهذا الإطار الكرونولوجي فنميل لسنة 46 ق م . تاريخ هزيمة يوبا الأول في معركة تابسوس حيث عرفت مملكة نوميدية وكذا باقي بلاد المغرب منعرجا حاسما في تاريخها، على اثر تسوية شؤون إفريقيا من طرف بوليوس قيصر رغم محاولة ارابيون (44 -40 ق م) إذا يمكن اعتبار سنتي 814 - 46 ق م إنهما تشكلان حدا كرونولوجيا اصطلاحيا للدراسة (نوميديا)

1- تأسيس قرطاجة:

تكاد تتفق المصادر على اعتبار سنة 814 ق .م سنة تأسيس قرطاجة من طرف الأميرة عليسة التي فرت من شقيقها بقماليون بكنوز زوجها عشرباص الذي أغتاله صهره .
والروايات التي تتحدث عن اصول قرطاجة، تقدم بالتأكيد أهمية تاريخية ، لكنها محاطة أيضا بالاساطير، مما يصعب تحديد الظروف والأسباب الحقيقية لتأسيس هذه المدينة ، والمعطيات المتنوعة وصلتنا خاصة من تيمايوس التاورومى (Timnée) (340-250 ق. م) الذي أطلع على النصوص البونيقية وكان بامكانه أن يستخبر مباشرة من القرطاجيين، وميناندروس الافيسوسي (Ménandré, d'Ephese) الذي استند على الحوليات الصورية ، واخيرا من يوستينوس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي .
حسب رواية يوستينوس يكون الحكم قد عاد بعد وفاة الملك ماتان (Matan) الى ابنيه عليسة وبقماليون. تزوجت عليسة ذات الجمال الباهر خالها عاشرباص كبير كهنة ملقرط ، والغني جدا ، وكان يخشى على ثروته من جشع الملك فدفنها في جوف الأرض ، لكن بقماليون الذي قرر الاستيلاء عليها لم يتوان في قتل خاله وزوج اخته في نفس الوقت. وشعرت هكذا عليسة بأنها مجبرة على الفرار ، وعرفت كيف تحتال على شقيقها ، وابحرت بأموال زوجها ومؤيديها إلى قبرص، ومنها الى افريقيا ، بعد أن انضم اليها في قبرص كاهن يونو (Juno) الذي ضمن لنفسه ولاسرته من بعده الاشراف الديني في المدينة الجديدة ، كما حملت معها من هذه الجزيرة ثمانين فتاة ليكن أزواجا للشباب الذين كانوا معها . وفي افريقيا أبتاعت قطعة أرض بمقدار جلد ثور (Byrsa) قطعت الجلد الى أشرطة صغيرة، أحاطت بمساحة تكفي لبناء قرط حدشت على ضوء هذه الرواية، يمكن الاستنتاج أن تأسيس قرطاجة كان نتيجة للصراع بين القصر والمعبد ، لكن هذه الفرضية تصطدم بغياب البغضاء والعداوة بين قرطاجة وصور في أخبار القدامي ، وبالمقابل أخبرنا هؤلاء بالاعتبار الكبير الذي كانت تكنه قرطاجة لمدينة صور عبر تاريخها ، وهو ما يصعب علينا قبول انشاء المدينة نتيجة الشقاق في الحكم على العكس من ذلك يمكننا القول انها انشئت بطريقة رسمية، فحضور الاميرة « عليسة » شقيقة الملك وزوجة الكاهن الأعظم يمكن أن يبين لنا الطابع الرسمى لهذا الانجاز، ويفسر لنا - ربما المكانة التي تحتلها قرطاجة فيما بعد ضمن المستوطنات الفنية في الغرب.

– 2تطورها السياسي

اذا كانت بداية قرطاجة متواضعة وظلت تدفع الجزية للاهالى المدة أزيد من ثلاثة قرون (814 . - 480 ق. م)، فانها سرعان ما تمكنت من فرض نفسها كقوة ابتداء من القرن الخامس ،

وتطورت من مركز تجاري الى قوة بحرية تعمل على السيطرة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، واصبحت مسؤولة على امبراطورية مترامية الأطراف ، تتكون من مستوطنات غنية في غرب صقلية ، وسردينيا ، ومالطة ، وايبيزا، واسبانيا الجنوبية وسواحل أفريقيا .

وان كنا لا نعرف طبيعة العلاقات التي تربط هذه المستوطنات بقرطاجة ، التي يبدو انها كانت مكلفة بالسهر على أمن تلك المستوطنات وممتلكاتها ، مقابل الاعتراف بسلطة قرطاجة في بعض المجالات السياسية والاقتصادية ، فالامر لا يتعلق ، وفق تعبير محمد فنطر ، بامبراطورية ذات سلطة مركزية في قرطاجة، لكن بفيدرالية « دول - المدن » ذات سيادة في المسائل الداخلية لكنها خاضعة فيما يتعلق بالسياسية الخارجية ، وبدون شك التجارة الخارجية لقرطاجة التي يعود لها عقد المعاهدات والاتفاقيات مع الدول الأجنبية مثل : الاغريق والأتروريين والرومان . وفي حالة النزاع العسكري تساهم المدن الفنيقية في العمل الذي يستهدف حماية المصالح المشتركة.

ولا ندري أن تقبلت هذه المستوطنات السيادة القرطاجية بسهولة وطيب خاطر أم لا ؟ لكن المؤكد أن الظروف المستجدة في حوض البحر الأبيض المتوسط الناجمة عن التوغل الاغريقى الذي اكد وجوده بتأسيس العديد من المستوطنات في جنوب ايطاليا – (ميتابونتة، ترنتة ، كروتون ، لوكريس بوسيدونيا) وصقلية (ماكسوس ، كتانيا ، سرقوسة ، ميقار ، سينونتة، ريجيوم ، هيميرا ، جيلا، اقريقنتة) وقورينة في ليبيا حوالى (631 ق.م) وماساليا في غالة حوالي سنة 600 ق م، وألاليا سنة 560 ق.م ، في الساحل الشرقي لكورسيكا ، كما حاولوا النزول في سواحل سردينييا ، مما شكل خطرا على فنيقى الغرب .

ولم يكن الاغريق وحدهم وراء مخاوف فنيقيو - الغرب ، الذين كان عليهم الخوف أيضا من أطماع أهالى المناطق التي يقيمون فيها ، وأمام هذا الخطر المضاعف لم يكن بامكان هؤلاء الاعتماد على مساعدة « صور » التي انتابها الضعف نتيجة ضربات الاشوريين فالفرس قبل أن تخض للاسكندر المقدوني سنة 332 ق. م، وبذلك وجدت المستوطنات الفنيقية في الغرب نفسها وحيدة في مواجهة الاغريق والاهالى ، فاضطرت الى التحالف مع قرطاجة.

بروز الممالك النوميدية و الموروية (نوميديا الشرقية و الغربية و موريطانيا) :

ليس لدينا من المصادر التاريخية الكافية التي تثبت بصفة قطعية وجود كيان سياسي مغربي مكتمل الشروط ، قبل ظهور قرطاجة . وباستثناء اسطورة عليسا التي تشير إلى وجود نوع من التنظيم السياسي المغربي في منطقة تونس الحالية أواخر القرن التاسع ق.م، أي قبل ظهور قرطاجة ، فإن معلوماتنا حول هذا الموضوع لا تزال تفتقر الى سند تاريخي يضع حدا للتساؤلات العديدة التي تثيرها الأسطورة . حتى أن المؤرخين اعتقدوا بعدم وجود نظام سياسي وطني بلاد المغرب قبل القرن الثالث ق . م ، وانه لا يرجح أن تكون هناك ممالك سابقة لمملكة نوميديا ، التي ظهرت في هذا القرن بشطريها :

1- نوميديا الشرقية ، وندعي ماسيليا Massylie نسبة إلى قبائل الماسيل التي اسستها

2- نوميديا الغربية ، وكانت تدعى مازيسيليا Masaessylie ، نسبة إلى قبائل المازيسيل التي انفصلت عن الأولى سياسيا لأسباب مجهولة

ثم أن أوائل الملوك المغاربة الذين ورد ذكرهم في المصادر التاريخية ، بالنسبة للمملكتين المذكورتين ، يتصدرهم غايا Gaya ملك نوميديا الشرقية ، التي تبدأ حدودها الشرقية من الحدود الغربية لأراضي الدولة القرطاجية ، وسيفاكس Syphax ملك نوميديا الغربية ، التي لا تعرف حدودها بصفة مضبوطة . ولعل الأسباب التي جعلت المصادر تحتفظ بذكرى هاتين المملكتين أنهما عاصرتا الحرب البونية الثانية ، وشاركتا فيها مشاركة مصيرية .

على أنه يبدو أن أواخر القرن الرابع ق.م، شهد نوعا من الأنظمة السياسية المغربية المجاورة لقرطاجة ، بدليل ما ذكره ديودور الصقلي Diodore de sicile من أن ملكا نوميديا يدعى الماس Ylmace ، حالف أغاتوكليس Agathocles الاغريقي الذي غزا السواحل القرطاجية عام 310 ق.م . الا أنه يصعب اعتماد هذه الإشارة كدليل على وجود مملكة مغربية مكتملة الشروط ، دفعها النضج السياسي والوعي الوطني إلى التحالف مع اعداء القرطاجيين رغبة في استئصال دولة قرطاجة من التراب المغربي

ويبدو أن السبب في هذه الصعوبة يعود الى فقدان المصادر الكتابية القرطاجية المعاصرة لتلك الأحداث ، ذلك أن كل ما يمكن أن يكون قد سجل من طرف الكتاب القرطاجيين ، حول

الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تسود المنطقة المجاورة لقرطاجة ، قد التهمته النيران التي أضرمها الرومان في هذه المدينة عام 146 ق .م ، وهو العمل الذي أتي على التراث القرطاجي بكامله . فحرمت الانسانية من الاستفادة من حصيلة تجربة كبيرة من تجارب الإنسان ، قام بها الرواد الفينيقيون وأحفادهم القرطاجيون في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط والساحل الأطلسي من الجزر البريطانية إلى ساحل غانا ، ثم إن المعطيات الاثرية التي تعود إلى هذه الفترة في بلاد المغرب لم يكتمل الكشف عنها في المنطقة المغربية ، ومن ثم ظلت حقائق تاريخية كثيرة غامضة أمام الباحثين . إضافة إلى ذلك فإن المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة من الاغريق أمثال هيرودوت Herodote و توسيديدس Thucydides وكزينوفون Enophon كانت معرفتهم بالمنطقة معرفة محدودة حيث اقتصرت على الجهة الشرقية ، مثل برقة الواقعة تحت النفوذ الاغريقي . وإن كان هيرودوت قد سجل بعض الأخبار حول سكان المنطقة الواقعة غربي ليبيا الحالية . الا أن هذه الأخبار غير وافية ويشوبها الغموض ، نظرا لكون المؤرخ المذكور نقلها عن طريق المشافهة والتراجمة ، ولم يزر بقية المنطقة التي وصفها في كتابه ، أو يسجل اخبارها عن كثب ، كما هو الشأن بالنسبة لاخباره عن مصر وسوريا و بلاد ما بين النهرين .

وعلى كل يمكن لبعض الملاحظات أن تثير التساؤلات حول احتمال وجود انظمة سياسية مغربية سابقة القرن الثالث قبل الميلاد

-أولى هذه الملاحظات ، هي أن دولة قرطاجة قد ظلت تدفع ضريبة للمغاربة المجاورين لها منذ أن تأسست (814 ق.م) : إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذي شهد ازدهارا اقتصاديا ، بلغته قرطاجة بفضل رواج تجارتها ، كما صاحب ذلك نمو سياسي وعسكري مكنها من مد رقعة نفوذها السياسي غربا ، فشملت توسعاتها منطقة الحوض الغربي البحر الأبيض المتوسط والساحل الأطلسي فضلا عن ضمها لأراضي المغاربة المجاورين ، كي توسع إقليمها على حسابهم ويبدو أن انقطاع القرطاجين عن دفع التزاماتهم للمغاربة (الليبيين في تلك الظروف . ناتج عن احساسهم بالقوة التي بلغتهم دولتهم آنذاك فاصبحوا لا يخشون بأس هؤلاء المغاربة واذا لم يكن هذا الاحتمال هو الأرجح ، فما سر تلك الضريبة إن صحت ؟ ، وهل تدل على وجود نظام سياسي ما ، كان يمارس السيادة على المنطقة التي قامت فيها المدينة قرطاجة ، فارغمها على الاعتراف له بالسلطة ، وكانت الضريبة عنوان هذا الاعتراف ؟ ، أم أن قرطاجة كانت تدفع تلك الضريبة لزعماء القبائل المجاورين لها كي تتقي غاراتهم المفاجئة . وبذلك تكون الضريبة المشار اليها عربون أمن وسلام لا غير ؟

والملاحظة الثانية يمكن استخلاصها من طبيعة الأخبار الخاصة بالمغاربة ، وهي التي تضمنتها روايات المؤرخين القدماء ، فهي تتصف بالقلة وعدم الشمول ، بحيث انها لا تعرف الاحداث الفترة السابقة للصدام الروماني القرطاجي فيما يخص بلاد المغرب . ثم أنها حتى في فترة الحروب البونية لا تغطي جميع المنطقة المغربية من الشرق إلى الغرب ، اذ ان تركيزا واضحا قد سلط على المنطقة الشرقية المحيطة بقرطاجة ، بينما يكاد ينعدم ذكر احداث المنطقة الغربية في كتابات هؤلاء المؤرخين ، حتى مملكة موريطانيا لم يرد عنها شيء مهم من الأخبار معا أنها كانت في فترة الحرب البونية الثانية تسيطر على المنطقة الممتدة من الملوية إلى المحيط الاطلسي

و مدلول هذه الملاحظة هو ان جهلنا الاحداث التاريخية التي صاحبت حياة الممالك الوطنية منذ نشأتها ، ليس دليلا على أن هذه النشاة كانت حديثة ، ولم تتجاوز نهاية القرن الثالث قبل الميلاد أما الملاحظة الثالثة فهي تتمثل فيما عرف عن مملكة نوميديا الموحدة ، على يد ماسنيسا Massinissa من مظاهر القوة الاقتصادية والسياسية ، الأمر الذي يبعث على الاعتقاد في احتمال وجود نظم سياسية سابقة لتلك المملكة ، مهدت السبل لهذا النمو والازدهار ، الذي نسبه المؤرخون القدماء إلى عاهلها ماسينيسا)(. غير أن هذه الملاحظات ستظل. محاطة بعلامة استفهام كبيرة ، ما لم تتوفر المستندات التاريخية التي توفر الاجابة القاطعة وتبعد التساؤلات

الحروب البونية و انعكاساتها على بلاد المغرب :

على الرغم من صعوبة الوصول إلى الظروف التي نشات فيها الممالك الوطنية المغربية ، وتعذر الاحاطة بانظمتها السياسية ، وعلاقتها ببعضها .. فان الأحداث التي سجلها وجود تلك الأنظمة ، قد احتفظ التاريخ ببعضها ، خاصة منها ما يتعلق بالصراع الروماني القرطاجي تتجلى تلك الأحداث فيما نشب بين نوميديا الغربية ونوميديا الشرقية من نزاعات اقليمية ، يعسر تحديد أسبابها ، لأن هذه الأسباب لها علاقة بالماضي الغامض ، وقد يعود بعضها الى صراع قبلي قديم

وأمام صعوبة التعمق في تلك الأسباب التي يحيطها الغموض : يحسن الاقتصار على تتبع الأحداث التي نشأت عن الخلافات السياسية بين النوميديتين ، ومدى مساهمة القرطاجيين والرومان في أذكاء تلك الخلافات . إذ يبدو أن المشاكل السياسية التي حدثت بين النوميديتين ، والتي نشبت بين خلفاء غايا ، ثم ميسيبسا ، لم تأخذ صفة الحدة التي أحالتها إلى صراع دموي طويل المدى ، الا بعد ان تدخلت التأثيرات الأجنبية الممثلة في القرطاجيين أولا ، وفي الرومان ثانيا ، الذين عملوا على توسيع شقة الخلاف بين المغاربة ، خدمة لأهدافهم في المنطقة

أ- دور قرطاجة في الخلافات النوميدية:

يبدو أن أبرز عامل ساعد على نمو الخلاف وتعميقه بين مملكة نوميديا الشرقية ونوميديا الغربية ، إبان الحرب البونية الثانية ، يكمن في عدم قدرة الديبلوماسية القرطاجية على التوفيق في محالفة المملكتين معا واقامة سياسية من التوافق بين العرشين ، تكون أساسا للوئام والمودة بين الأنظمة السياسية في المنطقة المغربية . ذلك أن الصراع السياسي بين النوميديتين قد ظهر بوضوح ، وحظي بالتسجيل ، منذ أن تحولت سياسة قرطاجة إلى الغرب المتوسطي ، في إطار استراتجيتها الجديدة عقب الحرب البونية الأولى . التي خرجت منها مهزومة ، وهذا التحول في الاهتمامات القرطاجية تطلب استمالة المملكة النوميدية الغربية عن طريق تحسين العلاقات معها . وعملا بهذا الاتجاه أبدت دولة قرطاجة ميلا الى الملك سيفاكس بحكم موقع مملكته من شبه جزيرة ايبيريا التي كانت الجيوش القرطاجية تعسكر فيها استعدادا للحرب الثانية ، وكان هذا الميل من مستلزمات الاجراءات الاستراتيجية لقرطاجة ، بهدف تامين خط الرجعة أمام جيوشها وحماية ظهر هذه الجيوش ، وضمان إمدادها من أقرب الطرق . وهذه عملية لا تتأتى الا عبر مملكة سيفاكس الممتدة من سيرنا إلى وادي الملوية

غير أن غايا ملك نوميديا الشرقية قد أعلن الحرب فجاة على قرطاجة عام 220 ق.م وهي حرب لا تزال أسبابها مجهولة ، وكانت هجوماته على أراضي قرطاجة ساحقة ، حيث تمكن من اجتياح مساحات واسعة الأراضي الخصبة ، في منطقة باجا Vaga وما جاورها في حوض مجردة Bagradas الأعلى ، وأصبح الوضع العسكري غير ملائم بالنسبة لقرطاجة ، لانها مقبلة على خوض حرب كبرى ضد الرومان . وليس في صالحها أن تتسع جبهة القتال لتشمل ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط شمالا وجنوبا ، خاصة وان جيرانها المغاربة في وضع يؤهلهم لان يكونوا في صفها ، وليس ضدها ، نظرا لما يربطها بهم من وشائج ، أقلها حسن الجوار الطويل والمصالح المشتركة

وتفاديا لمصاعب خطيرة ، قد تنتج عن مواصلة الهجومات النوميدية على أراضي قرطاجة ، أذعنت هذه الأخيرة لمطالب الملك غايا الإقليمية وأخذت تعمل على استمالته والتحالف معه . غير أن هذا السلوك القرطاجي أحدث رد فعل من جانب الملك سيفاكس ، صاحب نوميديا الغربية فأعلن الحرب ضد القرطاجيين ، الأمر الذي حتم على عزربعل Hasdrubal ان يوجه قسم من جيشه المرابط في اسبانيا ،لاخضاع مملكة سيفاكس . وهنا تبدو علائم إخفاق السياسة القرطاجية تجاه جيرانها النوميدين

هيأت هذه الأحداث فرصة ثمينة لروما لان تتدخل وتسيطر على الموقف ، وأحسنت استغلال تلك الفرصة عندما كلفت قائد جيشها في شبه جزيرة ايبير يا باجراء اتصالات مع سيفاكس ، في شأن التحالف معه ضد الملك غايا وقرطاجة . وتنفيذا للخطة حل الوفد الروماني المفاوض على

الملك سيفاكس أثناء اشتداد الأزمة بينه وبين القرطاجيين عام 213 ق.م . وتمكن الوفد من اقناع الملك بالقيام بعمل مشترك ، هدفه تحطيم كل من قرطاجة والملك غايا

ووفقا لرواية تيت ليف Tite-live نجح المفاوضون الرومان في مهمتهم لدى الملك سيفاكس ، فتحول إلى صداقة الرومان . كما يضيف نفس المؤرخ بأن أحد أعضاء الوفد المذكور أقام مع الملك بصفة مستشار. وتدل هذه الرواية إن صحت ، على أن الرومان لم يكونوا يطمئون الى الملك سيفاكس ، فاشترطوا عليه بقاء الممثل الروماني عنده في صورة سفير لهم في مملكته

عملا باتفاقية التحالف Allience ، التي تمت بين الرومان وسيفاكس ، اجتاز الملك البحر الى اسبانيا على رأس جيش هام ليشارك في الحرب الدائرة هناك إلى جانب الرومان . ويذكر المؤرخون أن أول اصطدام له مع الأمير ماسينيسا تم هناك ، عندما كان هذا الأخير يقاتل إلى جانب القرطاجيين على رأس الفرسان النوميديين . وكان أبوه غايا قد أوفده إلى هناك لمساعدة القرطاجيين منذ عام 212 ق. م

ويبدو ، من جهة أخرى أن الملك سيفاكس كان حريصا على تمتين العلاقات بينه وبين الرومان ، إذ بعث بوفد إلى مجلس الشيوخ الروماني Senatus يذكره بما كان قد تم بينه وبين القائد الروماني سيبيون Scipion ، وليتأكد من وعود هذا الأخير ، ومن ثم تكتسب اتفاقية التحالف التي تمت بينه وبين الممثلين الرومان طابعا رسميا يجعل الملك مطمئنا إلى بنودها التي لم يوضحها المؤرخ تيت ليف .
وروى هذا أن وقد سيفاكس لقي استقبالا حسنا من طرف مجلس الشيوخ الذي بعث مع الوفد ، عند عودته ، مثلين خاصين ، يحملون هدايا إلى الملك ، رمزا للصداقة وتمتينا للعلاقات بين الطرفين .
على أن مظاهر النجاح التي سجلتها السياسة الرومانية لدى الملك سيفاكس - من أجل فتح جبهة وراء القرطاجيين - لم تمنع هؤلاء من استرجاع الملك سيفاكس إلى صفهم ، وذلك باساليب يصعب التعرف عليها ، نظرا لسكوت المصادر عنها ، ما عدا زواج الملك سيفاكس من الأميرة القرطاجية سوفونيزية Sohponisbe ابنة عزربعل جسكون Hasdrubal Jescon ، وهو الجانب العاطفي الذي حظي باهتمام الكتاب فأولوه عناية خاصة ، واعتبروه الورقة السحرية الرابحة التي اهتدت اليها قرطاجة ، من أجل استعادة نفوذها السياسي في المملكة الثائرة واسترضاء الملك الغاضب

غير أنه ليس من المستبعد أن تكون تلك المصاهرة القرطاجية - النوميدية عملا سياسيا سعت قرطاجة من ورائه النجاح فيما فشلت فيه من قبل ، وهو محالفة الملكين النوميدين معا ، وتوحيد المنطقة المغربية في جبهة سياسية واحدة ، تدعم بها المعركة الدائرة بينها وبين الرومان وراء البحر غير أن النتيجة كانت مخيبة لآمال القرطاجيين فيما يبدو ، إذ أن تلك المصاهرة السياسية آثارت مشاعر الأمير ماسنيسا ، الذي قيل انه كان يرغب في التزوج من الأميرة القرطاجية

سوفونيزبة ، وأنه وعد بها قبل سيفاكس وقد زاد في تعميق المشكلة وفاة الملك غايا والد ماسينييسا عام 207 ق.م، وما تلا ذلك من نزاع حول وراثة العرش ، وتدخل قرطاجة والملك سيفا كس في موضوع الخلافة

والظاهر آن ماسينيسا نظر بعمق لابعاد الحوادث الجارية ، وما يمكن أن يترتب عنها من تغييرات سياسية وتقلبات في ميزان القوى بين القرطاجيين والرومان ، خاصة وأن هؤلاء قد نجحوا في التخلص من الطوق الذي فرضه عليهم القائد القرطاجي حنبعل Hannibal في إيطاليا وأخذوا يقومون بهجومات معاكسة ، فظهر للامير ماسينيسا أن يستفيد من التحولات الجديدة بالتعامل مع الرومان ، كي يتمكن من تحقيق مطامحه السياسية في عرش نوميديا ، خاصة وأن منافسيه في المملكة قد ارتبطوا بالجانب القرطاجي

وكان لموقف ماسينيسا أثر واضح على الصراع الدائر بين القرطاجيين والرومان ، إذ ساهم في نقل ميدان المعركة من ميادينها المألوفة في شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا إلى الشواطيء الجنوبية من البحر المتوسط ، أي إلى منطقة النفوذ القرطاجي في المغرب أما الأسباب المباشرة لهذه التغييرات المفاجئة في علاقة الدولة القرطاجية بالممالك الوطنية ، فتعود إلى ما أعقب وفاة الملك غايا من حوادث حول استخلافه .

ذلك أنه عملا بنظام وراثة العرش النوميدي ، المتعارف عليه ، آلت المملكة إلى ايزلصيس Aezalces كبير العائلة المالكة. لكن الموت عاجله مبكرا حيث توفي في السنة نفسها (207 ق.م)، وخلفه ابنه كبوسا Capaussa ، وهو أكبر من الأمير ماسينيسا . لكن مازيتول Mazaetule أحد الضباط الكبار ، انقض على الحكم ، وابعد كبوسا ليولي مكانه الكومازيس Lacumazesشقيق الملك المبعد ، وهو أصغر من ماسينيسا ، ولا حق له في وراثة الحكم قبله ، تبعا للعرف المتبع في الحكم ، أدت هذه الحوادث إلى انقلاب ماسنيسا ضد قرطاجة ، بعد أن تبين له أن لها يدا مع سيفاكس في تحريك تلك الأحداث ضد مصالحه السياسية في الحكم ، واعتبر ذلك تدخلا في شؤون المملكة ، فضلا عن كونه يعد تنكرا ، في نظره ، من طرف الدولة القرطاجية لخدماته التي أسداها لها بوقوفه مدة ست سنوات (212 - 206 ق. م) إلى جانبها في اسبانيا

وفي تلك الظروف وجد ماسنيسا في الرومان من يؤجج نار الحقد في قلبه على القرطاجيين ، ويثير فيه روح الانتقام منهم ، ومن حليفهم سيفاكس ، وهذه الفرصة كان الرومان يتحينونها من أجل القيام بعمل يعزل أعداءهم القرطاجيين عن حلفائهم ، وذلك باثارة المتاعب الداخلية بين ظهرانيهم ، عملا بمبدأ تفكيك الجبهة الداخلية للعدو ، وضربه من الداخل . وهذا اسلوب كان القائد القرطاجي حنبعل قد استخدمه مع حلفاء روما ايطاليا نفسها ، حيث استطاع أن يؤلب قسما كبيرا من القبائل الايطالية ضد روما ، ويتمكن من ضرب حصار خطير حولها وذلك بواسطة التحالف الذي أبرمه مع مجموعة من المدن المجاورة لعاصمة الرومان . والظاهر أن روما اقتدت باساليب عدوها حنبعل ، كي تقوم بهجوم معاكس ضد القرطاجيين ، فأوعزت إلى القائد

سيبيون الأفريقي Scipion l'africain المعسكر في اسبانيا ، لان يقوم بمجهود سياسي تجاه الأمير النوميدي الغاضب ماسنيا ، قصد استمالته وعقد تحالف معه ، يكون بمثابة جسر يمكن الرومان من النزول في أراضي الأعداء القرطاجيين

والظاهر كذلك ، أن القائد سيبيون لم يجد صعوبة كبيرة في اقناع الأمير ماسنيا بوجهة نظر الرومان ، واغرائه بالتعاون معهم الاستعادة مملكة والده من مغتصبيها وحلفائهم ، حيث أن التحالف قد تم بين الأمير ماسنيسا والقائد سيبيون بسرعة . أي في نفس السنة التي جرت فيها تلك الأحداث بنوميديا)206 ق .م(، م ما يشير الى سرعة تحرك الديبلوماسية الرومانية ، وفعالية هذا التحرك في استغلال الظروف المواتية

تضمن التحالف خطة للعمل العسكري المشترك بين الرومان والأمير ماسينيسا على أرض المغرب كلها ، وعلى التخوم القرطاجية خاصة ، وتم الاتفاق على أن يكون انزال الجيوش الرومانية في شواطيء نوميديا الشرقية ، حيث يكون ماسسنيسا في الانتظار ، بعد أن يمهد للحملة الرومانية في المنطقة سياسيا وعسكريا ، ومن ثم ينطلق النشاط العسكري الروماني-النوميدي ضد القرطاجين وحليفهم سيفاكس .
وبعد رسم خطة هذا المشروع في اسبانيا ، غادرها كل من القائد سيبيون وماسنيسا ، فتوجه الأول إلى روما للحصول على منصب القنصلية مجددا ، بينما اجتاز الثاني مضيق أعمدة هيرقل (مضيق طارق حاليا) : ليلتحق بمملكة ابيه المغتصبة . فنزل عند الملك الموريطاني باغا Vagaالذي تكفل بنقله عبر مملكة سيفاكس ، بواسطة حرس خاص اوصله إلى حدود مملكة نوميديا الشرقية(

وعمل الملك الموريطاني هذا ، يثير احتمال تورطه في قضية العرش النوميدي ، أو في الصراع الروماني القرطاجي على الأقل . فتصرفه مع ماسنيسا يكون بدافع العداوة مع سيفاكس ، او انه يضمر سوء نية نحو قرطاجة ، ومن ثم يكون على علاقة ما بالرومان . الأمر الذي يحتمل معه أن يكون القائد سيبيون هو الذي أوعز اليه بمديد المساعدة لماسنيسا . ويجد هذا الاحتمال الأخير ما يقويه في الأحداث التي أعقبت سقوط سيفاكس عام 203 ق.م وتوسعات ماسنيسا على حساب مملكة نوميديا الغربية ، حيث ان فتوحات ماسنيسا لم تتجاوز الحدود الغربية المملكة سيفاكس ، وهي تنتهي عند وادي الملوية ، حيث تبدأ الحدود الشرقية المملكة موريطانيا ، وتوقف ماسنيسا عند هذا الحد ينبه إلى ما يمكن أن يكون قد تم بينه وبين الملك الموريطاني باغا ، حول مستقبل المنطقة المغربية بعد تصفية الحساب مع سيفاكس

غير أنه من الصعب إثبات أحد الاحتمالات السابقة أو نفيه بسبب ما يحيط الملك باغا من صمت ، إذ أن أخبار مملكة موريطانيا في هذه الفترة لم يرد ذكرها في كتب المؤرخين ، ولعل السبب في هذا السكوت يعود إلى الدور الثانوي الذي لعبته المملكة في تلك الحوادث الكبرى بالمنطقة المغربية.

ب ـ انقلاب ميزان القوى لصالح الرومان وتردد سيفاكس :

اذا كان ماسينيسا، قد انقلب على قرطاجة ، معلقا مستقبله السياسي على نتائج الحرب الدائرة بين الرومان والقرطاجيين ، وعلى النشاط الايجابي الذي يجب أن يقوم به في تلك الحرب لصالح حلفائه ، فان سيفاكس من جهته حاول أن يستفيد من الأحداث الجارية ايضا . لكن تردده بين القوتين المتحاربتين ، روما وقرطاجة ، جعله يفشل في تحقيق أهدافه

ويبدو أن لتردد سيفاكس اسبابا لا تعود كلها إلى تأثير زوجته القرطاجية عليه كما اجمع على ذلك المؤرخون ، بل أن محاولة التراجع التي قام بها عام 203 ق.م، عن حليفته قرطاجة ، ومساعيه السلمية لدى الرومان ، يمكن أن تفسر بالوضع العسكري القرطاجي الذي أصبح غير ملائم ، منذ أن حقق الرومان انتصارات عامة ضد القرطاجيين في أسبانيا وهي الانتصارات التي سقطت فيها المدينة القرطاجية الجديدة (قرطاجنة Carthagena (بأيدي الرومان عام 209 ق م، وقد ظهر منذ ذاك أن المعارك في صالح الرومان ، حيث تمكنوا من اجتياح شبه الجزيرة الايبيرية . واستطاعت الاستراتيجية الرومانية أن تقضي على محاولات الامداد الموجهة إلى حنبعل في ايطاليا و عبر البحر المتوسط ، وأصبح واضحا أن انتعاش روما العسكري ستكون له عواقب وخيمة على قرطاجة وحلفائها ، إذ أن علائم الانهاك قد بدأت تظهر على الجيوش القرطاجية ، ففقدت زمام المبادرة ، ولم تستطع انقاذ الموقف في اسبانيا ، كما فشلت في الاتصال بقائدها الكبير حنبعل ، المحاصر في ايطاليا . وأخيرا كان الهجوم المعاكس الكبير الذي قام به سيبيون على الشواطيء القرطاجية عام 204 ق.م، منذرا بالخطر الداهم على كل من قرطاجة وسيفاكس . هذا بالاضافة الى استفحال امر ماسينيسا في نوميديا الشرقية ، حيث تمكن من الحصول على اتباع ومؤيدين له ، من بين القبائل في نوميديا الشرقية ، عبأهم للقتال في صفوفه ، وهو أمر جعل عملية القضاء عليه مستحيلة التحقيق في نظر سيفاكس

وسواء كانت هذه الأسباب أصح ، أو تلك ، في تفسير التردد الذي طرا على سيفاكس ، في مواقفه السياسية تجاه الدولتين المتحاربتين ، فان القائد الروماني سيبيون لم يصغ لصوت السلم الذي ردده سيفاكس . ويظهر ان القائد سيبيون قد رأى في ماسنيسا ما يكفي لضمان النصر على قرطاجة ، فلم يشأ أن يتورط في محاولة التوفيق بين الملكين النوميديين اللذين فشلت الديبلوماسية القرطاجية في كسبهما معا

أما الأحداث العسكرية ، فقد أسفرت عن النتيجة التي رسم مخططها سيبيون وماسنيسا قبل افتراقهما في اسبانيا عام 206 ق.م لقد وضعت معركة سيرتا Cirta عام 203 ق . حدا لنشاط سيفاكس الذي وقع في قبضة ماسنيسا ، وتلتها معركة زاما Zama عام 202 في م. التي أسفرت على هزيمة القرطاجيين بقيادة حنبعل وانتهت الحرب البونية الثانية باستسلام قرطاجة لشروط الرومان المنتصرين . أما النوميديتان الشرقية والغربية ، فقد سقطتا تباعا في يد ماستيسا وحلفائه الرومان ، دون أن تعوقهم المقاومة الواهنة التي أبداها حلفاء سيفاكس التمسك ببقايا المملكة.

تطور نوميديا بين موت ماسينيسا و انتحار يوبا الأول (148 – 46 ق.م)

مملكة نوميديا بعد موت ماسينيسا :

- الصراع على العرش :

في سنة 148 ق.م وخلال الحرب البونية الثالثة انتقل ماسينيسا إلى عالم الأموات بعد أزيد من نصف قرن من الحكم تمكن خلاله من تغيير وجه الخريطة السياسية لنوميديا التي امتدت في عهده من وادي الملوية إلى معابد فينوس شرقا بوفاة ماسينيسا خلفه أبناؤه الثلاثة مكيبسا (Micipsa) (MKW’SW) غلوسة (Gulussa-G’I’SW) مصطنبعل (M’STN’BL) الذين وزعوا المهام بينهم فتكفل الابن الأكبر مكيبسا بالشؤون الإدارية، و مصطعبل بالقضاء، و غلوسة تولى الشؤون العسكرية قبل ان ينفرد الأول بالحكم بعد وفاة شقيقيه حوالي سنة 140 ق.م.

- لم يحظى عهد ميكيبسا باهتمام المؤرخين الإغريق والرومان نظرا لعدم اهتمام هؤلاء بالمنطقة المغاربية إلا عندما تكون محل احتكاك بالشعبين الإغريقي و الروماني .

الصمت الذي خيم على عهد مكيبسا دفع بعض المؤرخين إلى تقديمه في صورة الملك الخاضع لروما غير إننا لا نستبعد ان يكون هذا الصمت ناتجا عن سيادة الاستقرار في نوميديا في عهد هذا الملك ، فقد استطاع طيلة ثلاثين سنة من الحكم (148 – 118 ق.م) ان يسيطر على كامل نوميديا من السيرت الكبير شرقا إلى وادي الملوية غربا.

كما احتفظ بعلاقات الود مع موريتانيا في الغرب و الرومان في الشرق. فلم نسمع بثورات محلية في عهده ولا صراعات خارجية مما سمح له بالانصراف إلى البناء الداخلي فمواصلة البناء الخارجي الذي بداه والده ، فقد زين و جمل مدينة قيرطا(العاصمة). كما اهتم بالعلم والعلماء.

فرغم تخلي ميكيبسا عن سياسة والده التوسعية فقد واصل سياسته في النهوض بالاقتصاد و تشجيع حياة الاستقرار ، و هو ما تؤكده النقوش التي يبدو من خلالها ان الفلاحة حظيت بعناية هذا الملك ، إذ يشير نقش عثر عليه في شرشال إلى ان مكيبسا قد شيد العديد من القرى وكون ضيعا ذات مدخول وافر، كما اهتم بالمناطق الغربية لنوميديا وهي المناطق التي يرى كامبس انها بدات تؤدي دورا أساسيا في عهده و هذا دون إهمال المناطق الشرقية.

وفي عهد هذا الملك تحركت عجلة النمو فخرجت مدن مثل باجة و دوقة من عزلتها بالإضافة إلى تالة و قفصه و أصبحت كلها مدنا محصنة تستقبل كنوز الملك و تتكدس في خزائنها مداخيل الضرائب و المكوس . كما نشطت حركة التجارة و أصبحت قيرطا في عهده مركزا تجاريا كبيرا يؤمه الأهالي الذين يأتونه من كل صوب.

ان اهتمام مكيبسا بالمجال الاقتصادي لم يحل دون الاهتمام بالمجال العسكري و العمراني، فيذكر سترابون انه بالإضافة إلى تحصين قيرطا و تزيينها و إنشاء القصور بها فقد جعلها في وضع تستطيع معه تجنيد عشرة آلاف فارس و ضعف هذا العدد من المشاة، وهو ما جعل جوليان يتساءل إذ لم تكن محاولة تعمير إفريقيا بالايطاليين التي قام بها كراكوس (Grachus) موجهة ضده وهو أيضا ما نجده عند المؤرخ هشام الصفدي، الذي يرى ان قوة ماكيبسا المتزايدة هي التي اثارت مخاوف الرومان. كل هذه الأعمال جعلت قابريال كامبس يعلق على عهد مكيبسا قائلا : ان ثلاثين سنة من السلم، جعلت من عهد مكيبسا أكثر عهود المملكة النوميدية نفعا وان لم يكن أكثرها بريقا.

توفي مكيبسا عن سن متقدمة تاركا مملكة قوية مترامية الأطراف لأبنائه، بعد ان أوصاهم على الوحدة والتعاون: إني تاركا لكم عرشا قويا ان أحسنتم سياستكم، ضعيفا ان لم تحسنوها فبالوحدة و الاتفاق تقوى الدول الصغيرة، و بالتفرقة تنهار أعظم الدول. لكن الأخطار المحدقة بالمملكة كانت اكبر من محتوى الوصية التي تحمل في طياتها كثيرا من المعاني الفلسفية الصعبة التحقيق في الواقع.

إذ ترك مكيبسا بعد وفاته ولدين هما عذربعل (Adherbal) و هيمبصل (Hiempsal) كما تبنى يوغرطة ابن شقيقه مصطنبعل الذي جعل منه وريثا مثله مثل ولديه وبذلك يتشكل الحكم الثلاثي الثاني.

وكان الاختلاف في ميول وشخصية هؤلاء وراء نشوب الخلاف بمجرد العودة من مراسيم الجنازة . إذ اجتمع الأمراء الثلاثة للنظر في شؤون المملكة، لكن خلافا نشب بينهم ولم يتمكنوا من التوصل إلى حل غير التقسيم فاتفقوا على تقسيم المملكة و الأموال ، و هو ما كان يخالف رغبة يوغرطة الذي أرسل من اغتال ابن عمه هيمبصل سنة 117 ق.م .

أثار اغتيال هيمبصل ضجة كبيرة في نوميديا انقسم النوميديون على إثرها إلى معسكرين : الأغلبية مع عذربعل ، لكن أفضل الجنود كانوا من جهة يوغرطة، الذي اخضع عددا من المدن النوميدية بعضها بالقوة و بعضها الآخر رضيت بالتبعية له طواعية. و أوشك ان يخضع كامل نوميديا عندما أرسل عذربعل وفدا إلى روما يخبرها بمقتل أخيه و يحيطها علما بالوضع السائد في نوميديا، في الوقت الذي تهيأ فيه للعمل العسكري لكل قواته ستنهار في أول اصطدام لها مع قوات يوغرطة . مما يضطره إلى اللجوء إلى الولاية الرومانية و منها إلى روما سنة 116 ق.م . كما أرسل يوغرطة بدوره وفدا لشرح موقفه و هذا بعد ان أصبح سيد نوميديا.

ندد عذربعل في مجلس الشيوخ الروماني بأعمال يوغرطة و حاول إبراز خطورة نواياه كما حاول كسب أعضاء مجلس الشيوخ إلى جانبه بإظهار تبعيته المطلقة لروما التي طلب منها العون و المساعدة بكلمات كلها تملق و استعطاف في خطاب مطول .

أما ممثلو يوغرطة فقد أوجزوا القول و ذكروا فقط ان هيمبصل ذهب ضحية قساوته، أما عذربعل فهو البادئ بالعدوان بدون مبرر كما طلب الوفد بالحكم على يوغرطة حسب أعماله لا أقوال أعدائه ، قرر مجلس الشيوخ بعد التداول إرسال وفد يتكون من عشرة ممثلين رومان برئاسة لوكبوس اوبيميوس (L.Opimius) بهدف تقسيم المملكة النوميدية بين يوغرطة و

عذربعل ، فتم تقسيم المملكة بين الشقيقين أواخر 116 ق.م حيث حصل يوغرطة على الجزء الغربي و عذربعل عل الجزء الشرقي.

ذلك ما أقره مجلس الشيوخ الروماني لكن تلك الترتيبات الإقليمية ما لبثت ان تعرضت للتغيير بسبب رفض يوغرطة لها و قيامه بثورة ضد روما بدءا من اغتيال هيمبصل ثم محاربة اذربعل و من سانده من الجالية الايطالية الرومانية المقيمة في المدن النوميدية (سيرتا) و أبرزها عاصمة المملكة " كرطا" . التي اقتحمها يوغرطة وقتل كثيرا ممن فيها من الرومان الأمر الذي أثار روما فشنت عليه حربا، سميت بحرب يوغرطة (112 - 105 ق.م) انتهت بالقبض عليه و سوقه ليموت في السجن بروما . وقامت بترتيبات إقليمية على الخريطة السياسية لنوميديا، أبرزها اقتطاع أجزاء من الجهة الشرقية و ضمها لمقاطعة أفريكا الرومانية و منح الجنود المشاركين في حرب يوغرطة أراضي زراعية فيها، ثم منح ملك الموروبوكس الجزء الغربي من مملكة نوميديا جزاء له على مساعدة الرومان في القبض على صهره يوغرطة خدعة ، و بذلك تعدت مملكة المور الحدود الطبيعية التاريخية بينها و بين مملكة النوميد ممثلة في الحاجز المائي و هو نهر ملوية .

دخلت مملكة نوميدية بعد تلك التغيرات السياسية مرحلة التدهور عندما فقدت سيادتها على جل أراضيها، و أصبح مصيرها مرتبطا بإرادة روما . وتتأثر بما يحدث فيها من صراعات على السلطة بين القناصل فتنعكس نتائج تلك النزاعات الداخلية على أوضاع المملكة و مصيرها . وهو ما مهد لاحتلال أراضيها و إزالة كيانها كدولة من خريطة المغرب السياسية. من ذلك ان الحرب المدنية (الأهلية) التي نشبت في روما بين أنصار يومبي (حزب المحافضين) و أنصار يوليوس قيصر (العامة) أواسط القرن الأول قبل الميلاد وقف فيها الملك يوبا (الأول) ملك نوميديا مؤيدا لأتباع بومبي . فترتب عن ذلك مقتل الملك فزوال مملكة نوميديا نهائيا لما انتصر يوليوس قيصر على إتباع بومبي في معركة تايسوس الفاصلة في الشاطئ الشرقي لتونس عام 46 ق.م، فجزأ قيصر أراضي المملكة بين من وقف إلى جانبه في صراعه ضد يومبي فسلم الجزء الغربي إلى حليفه بوكوس الثاني الذي اجتاح جيشه أثناء الحرب أراضي

نوميديا الغربية حتى مشارف كرتا في غياب الجيش النوميدي الذي كان محتشدا ساعتها في مواجهة جيش قيصر بشرقي المملكة. ونال جماعة من المرتزق الرومان تحت قيادة سيتيوس إقليم الشمال النوميدي الواقع غربي مدينة كوتا مكافأة من قيصر لهم على أدائهم الحرب الجيد في ارض نوميديا نصرة له. واحتفظ قيصر لروما بالأقاليم النوميدية الشرقية ذات الخصوبة العالية و بتلك التغيرات الجوهرية في خريطة المغرب السياسية لم يعد لمملكة نوميديا وجود. فقد انشأ يوليوس قيصر على الجزء الذي احتفظ به منها لروما مقاطعة رومانية جديدة سماها أفريكا الجديد (أفريكا نوفا Africa.Nova) معينا على رأسها صديقه و مساعده صلوستيوس (Sallustus) مؤلف كتاب حرب يوغرطة " كان ذلك عام 46 ق.م. و منذئذ أضحت أقاليم نوميديا الغربية جزءا من موريتانيا التي أسست روما عليها فيما بعد مقاطعة القيصرية. فانحصر اسم نوميديا الرومانية في جزء ضئيل من إقليم نوميديا السياسي و التاريخي، ولم تعد ذات شأن كبير في العهد الإمبراطوري بينما ضمت أجزاء من جهاتها الشرقية إلى مقاطعة أفريكا البروقنصلية .

ومما سبق يمكننا ملاحظة ان الخريطة السياسية لنوميديا تعرضت لثلاثة تغيرات منذ وصول ماسينيسا إلى الحكم سنة 203 ق.م حتى وفاة يوبا الأول سنة 46 ق.م و أول هذه التغيرات كان في صالح المملكة التي لم يتمكن العاهل ماسينيسا من توحيد شطريها فحسب، بل أكثر من ذلك استطاع ان يضم أراضي قرطاجية و بذلك امتدت المملكة في عهده لتشمل كل الأراضي الواقعة من السيرت الكبير شرقا ووادي الملوية غربا باستثناء إقليم قرطاج .

أما التغيير الثاني فقد حدث اثر نهاية حرب يوغرطة (111 – 105 ق.م) التي و ان لم تفض إلى توسعات رومانية في المنطقة فقد حصل بوخوص الأول ملك موريتانيا على معظم الجزء الغربي من نوميديا موسعا بذلك حدوده حتى نهر الساحل (صلداي)، جزاء تعاونه مع الرومان في القضاء على يوغرطة ، كما انفصلت لبدة عن نوميديا أثناء هذه الحرب .

أما التغيير الثالث فقد حدث بعد انهزام يوبا الأول في معركة تابسوس سنة 46 ق.م، و الذي فقد على أثره مملكة نوميديا التي قسمت على الأطراف الثلاثة المتعاونة (قيصر – سيتيوس – بوخوص) إذ حصل هذا الأخيرعلى جزء الممتد بين وادي الساحل (صلداي الصومام) ووادي امساقا (وادي الكبير) بينما حصل الثاني على مقاطعة في ضواحي قيرطا جعلها قيصر حدا فاصلا بين المقاطعة الرومانية الجديدة التي أنشأها (إفريقيا الجديدة) ومملكة موريتانيا وبهذا الترتيب يكون قيصر قد وضع حدا لمملكة نوميديا رغم محاولة ارابيون (Arabion) ابن ماسينيسا الثاني الذي تمكن سنة 44 ق.م من قتل سيتيون و إبعاد بوخوس من الأراضي التي استولى عليها بعد تابسوس و أعاد بذلك الحياة مؤقتا لنوميديا. لكن سرعان ما يهزم بدوره من طرف حاكم المقاطعة الرومانية سنة 40 ق.م بعد أربع سنوات من الحكم .

نوميديا عشية الحرب الأهلية الرومانية سنة 49 ق.م :

كما أسلفنا في المحاضرات السابقة، لقد حدثت تغيرات على الخريطة السياسية لنوميديا بعد نهاية " حرب يوغرطة " سنة 105 ق.م إذ استحوذ بوخوس الأول ملك موريتانيا على الجزء الأكبر من نوميديا بعد ان امتدت حدود موريتانيا الى " صلداي (بجاية) نهر الساحل، و هذا جزاء تعاونه مع الرومان ، بينما نصب غودا (Gauda) شقيق يوغرطة على نوميديا الشرقية الذي لا تعرف شيئا عن عهده بسبب الغموض الذي يحيط بهذه المرحلة الفاصلة بين هزيمة يوغرطة و حملة يوليوس قيصر على إفريقيا (105 – 46 ق.م)

فالثابت انه في سنة 88 ق.م كانت نوميديا تحت حكم عذربعل الثاني الذي يكون قد حكم في أقصى المناطق الشرقية من نوميديا في المنطقة التي عرفت فيما بعد بالمزاق (Byzacene) أثناء الصراع بين ماريوس وسولا

بينما يكون هيرباص قد حكم إلى الغرب من مملكة حفصبعل الثاني في المنطقة المحاذية لقيرطا و كانت عاصمته بولا ريجيا (Bulla-Rejia)

و يعتقد انه أميرا ثالثا يدعى ماسينيسا قد حكم البلاد الواقعة بين وادي لمسابا (الوادي الكبير) و صلداي (بجاية) و كان مقر عاصمة قيرطا . إذ كيف نفسر تخلي هيرباص على قيرطا المحصنة و الشهيرة لصالح مدينة مغمورة قريبة من الولاية الرومانية (Bulla – Rejia).

و عند اندلاع الصراع بين ماريوس وسولا انحاز حفصبعل إلى هذا الأخير، أما هيرباص فقد ناصر اتباع ماريوس و استطاع عزل حفصبعل و ماسينيسا المؤيدين لبومبي Cn.Pompeius لكنه في الأخير اسر من طرف القائد سيلا و ارجع الوضع إلى ما كان عليه سابقا بان أعاد المملكة النوميدية إلى ماسينيسا و هيمصال الثانيين. وضم حفصبعل مملكة هيرباص مع إخضاع الجيتول لحكمه و كذا كل الأراضي الساحلية بين مدينتي لمطة و لبدة أما امتداده غربا فلا يمكن تحديده و كل ما تستطيع قوله هو أنها امتدت إلى غرب الممتلكات الرومانية (أفريكا) . و كانت مدينة زاما إحدى عواصمها في عهد ابنه يوبا الأول إلى جانب قيرطا ، مما يجعلنا نعتقد في امتداد حدودها حتى صلداي (بجاية) .

ان حفصبعل حسب رأي بعض المؤرخين كان رجلا ميالا إلى الآداب حيث ينسب إليه كتاب كتب بالبونية بكون سالوسطوس المؤرخ الروماني قد اقتبس منه الفقرة الخاصة بأصل سكان بلاد المغرب. و هو ما جعله يحتفظ بالعلاقات الطيبة التي كانت تربطه بالرومان طيلة المدة التي قضاها في الحكم و هو ما يفهم من قول شيشرون انه حصل على لقب "الملك الحليف " .

و بوفاة حفصبعل الثاني (88 – 62 ق,م) خلفه ابنه يوبا الأول الذي كان محبا للظهور ميالا للحرب حيث قام بعدة حملات ضد القبائل المتمردة وتوسع في إقليم لبدة و حاصرها مما اجبر روما على التدخل، كما كان على خلاف مع ملكي موريتانيا بوخوس الثاني و يوغودا.

كما عمل على تزيين عاصمته زاما Zama بقصور فاخرة و حصنها بأسوار ثلاثية تضمن له ملجأ منيعا في وقت الحاجة، بعد مدة طويلة من الحكم لم يحصل يوبا الأول على اللقب "صديق و حليف الشعب الروماني " من مجلس الشيوخ . بل أكثر من ذلك نجد ممثل الحزب الديمقراطي (العامة) كيريو (Curiou) يضع مشروع قانون بومبي إلى حضر مملكته نتيجة تصرفاته التي

أثارت مخاوف كيريو ومن ورائه مجلس الشيوخ مما دعاه للتفكير في التخلص من يوغرطة جديد.

و هذا ما يفهم من الدور الذي لعبه يوبا الأول في الحرب المدنية، إذ أدرك انه مدعو للعب دورا كبيرا في الصراع الذي نشب في روما انذاك والذي ستنتقل عدواه إلى باقي الولايات منها إفريقيا.

انتقال الحرب إلى إفريقيا :

بعد ان تمكن قيصر من السيطرة على ايطاليا فرايتوس فاروس Varos إلى إفريقيا على رأس بعض القوات، وفي إفريقيا تمكن من تجنيد فرقتين و أعلن فيها سلطة بومبيوس بعد ان اتخذ من مدينة اوتيكا مقرا له، وتحالف مع يوبا الأول و بدا يعد العدة للدفاع عن إفريقيا عند الضرورة . كما هيأ الموانئ و المحطات البحرية للدفاع. أمام هذه التطورات أسرع قيصر بإرسال كيريو لاخضاء فاروس و يوبا الأول رغم ان كيريو لم يكن يتمتع بمقدرة عسكرية كمقدرته السياسية . لكن مع ذلك تمكن بعد المعارك الأولى التي كانت لصالحه ان يجبر فاروس إلى التحصن في اوتيكا التي حاصرها كيريو لولا قدوم يوبا الأول على رأس قوات معتبرة اضطرته لا إلى فك الحصار فحسب بل إلى التحصن خلف معسكر كورينيليا لكن يوبا تمكن من التحايل عليه و استدرجه إلى موقع اختاره ليكون ميدان للمعركة . حيث فوجئ كيريو و جنده عندما وجدوا أنفسهم محاصرين بإعداد لا تحصى من النوميديين و الفي 2000 فارس من الأسبان و الغاليين كانوا ضمن جيش يوبا الأول و لم يبق أمام كيريو وجنده غير الدفاع لكن يوبا تمكن من إبادتهم عن أخرهم .

في كورنيليا كان هول المعركة كبيرا إذ لم يجد جنده بدا من الفرار فارتموا في السفن التجارية الراسية بالميناء التي لم تتحمل كثرتهم فلم ينج منهم غير عدد قليل بلغ صقليه في 20 جويلية سنة 49 ق.م أما الباقون في المعسكر فقد أبادهم يوبا الأول .

بعد هذه المعركة بسنة و بعيدا عن إفريقيا انهزم بومبيوس في معركة فارسالوس سنة 48 ق.م و بعد مقتله انتقل كثير من أنصاره إلى إفريقيا . و عملوا على جمع قواهم و تنظيم أنفسهم و تمكنوا في فترة وجيزة من جمع قوات معتبرة قدرت بحوالي خمسة و ثلاثون ألف (35000) محارب منهم خمسة عشرة إلف (15000) فارس و أسطول بحري يتكون من حوالي خمسين (50) سفينة هذا دون اعتبار قوات يوبا الأول المقدرة بحوالي ثلاثين ألفا من المشاة و قوات كبيرة من الفرسان زيادة عن ستين فيلا .

تجمع أنصار بومبيوس في إفريقيا كان يستلزم على قيصر ان ينتقل إليها ليخوض حربا أخرى وحتى يضمن النجاح لحملته الإفريقية عمل على التقرب من ملكي موريتانيا بوخوس II و بوغود . و لتحقيق ذلك تم إعلان يوبا " عدو الشعب الروماني " في الوقت الذي أعلن فيه كل من بوخوس و بوغود " صديقين و حليفين للشعب الروماني و منحهما مملكة يوبا حتى يهاجماه من الخلف و يعوقاه بذلك عن تقديم العون لأنصار بومبيوس .

في هذا الوقت بالذات قام قيصر بتجميع قواته المقدرة بعشرة فرق من المشاة و أربعة ألاف (4000) من الفرسان في صقلية و أبحر من ليليبايوم على رأس ستة فرق من المشاة و سبع كتائب من الخيالة يقدر عدد فرسانها بحوالي ألفين (2000) و ستمائة فارس و قوة صغيرة من المشاة الخفيفي العدد فقط و هذا بسبب افتقاره إلى أسطول قادر على نقل كل قواته .

نزل قيصر في ضواحي سوسة (Hadrumete) في 31 أكتوبر سنة 47 ق.م بعد رحلة شاقة تشتت إثناءها قواته . إذ لم ينزل معه من كل قواته غير ثلاثة ألاف (3000) من المشاة و مائة و خمسين فارسا وهي قوات جد متواضعة بالمقارنة مع قوات أنصار بومبيوس في إفريقيا لكن هؤلاء لم يتفطنوا إلى هذا التفوق و ظلت سفنهم العديد راسية في الموانئ و بدل مضايقة قيصر و العمل على منع وصول النجدات له مهد ميتيلوس سكيبيو الذي لم يكن في مستوى المسؤولية التي أسندت إليه لفصل سكان الولاية عنه بتركه جنوده ينهبون الولاية الرومانية .

بعد نزول قيصر بإفريقيا حاول الاستيلاء على سوسة لكنه لم يستطع لحصانة المدينة فاضطر إلى التراجع و التحصن بروسبينا بعد ان اخضع مدينة لمطة التي ستدعم مركزه بفضل مينائها الذي سيتلقى عن طريقه الامدادت الضرورية لكن لابينوس سرعان ما هاجمه على رأس 10 ألاف (10000) مقاتل غالبيتهم من الفرسان النوميديين . و رغم تمكن قيصر من صدهم إلا ان وضعه سرعان ما يتعقد بوصول ميتيلوس سكيبيو على رأس ثماني فرق و ثلاثة ألاف فارس، و كذا تحرك يوبا الأول على رأس النوميديين و بذلك حوصر في هذا الموقع.

ولم يخلص قيصر من هذا الوضع غير استيلاء سالوسطوس على جزيرة قرقنة التي كانت تتوفر على الكثير من المؤونة و كذا انضمام ستيوس إلى بوخوس و احتلاله لمدينة قرطا مما جعل يوبا الأول يحول أنظاره و تراجع على رأس جزء من قواته ليحمي مملكته، خاصة بعد ان هاجمتها قبائل الجيتول من الجنوب بتحريض من إتباع قيصر.

اضطر يوبا أمام هذه التطورات إلى توزيع قواته على ثلاث جبهات و هو ما كان في صالح قيصر خاصة بعد ان وصلته الدفعة الثانية من قواته التي تتكون من فرقتين و ثمان مائة (800) فارس و ألف (1000) من رماة النبال ، عمل على إجبار خصومه على الدخول معه في معركة قبل عودة يوبا فغادر موقعه في روسبينا جنوبا و احتل بعض التلال على بعد عشرة (10) كيلومترات من موقعه السابق بعد ان سكيبيو رفض الخروج من موقعه الحصين عند اوزيتا و الاشتباك مع قيصر مما جعل هذا الأخير يتمادى و راح يهدد قوات سكيبيو في مواقعها، بعد ان وصلته الفرقتان الباقيتان من قواته، لكن لابينوس حال دون ذلك، مما دفع قيصر إلى الانسحاب جنوبا نحو ضواحي أغار (Aggar) على بعد ثلاثين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي (اوزيتا) كما استولى على سارسورا (Sarsura) و مخازنها قبل ان يعود إلى أغار فبراير سنة 46 ق.م.

أمام هذه التطورات تخلى يوبا عن قيادة العمليات ضد سيتيوس للقائد سابورا (Sabura) و اتجه شرقا نحو معسكر سكيبيو و عسكر قربه و هو ما أثار مخاوف أتباع قيصر و رفع معنويات خصومه بعد اطلاع أنصار قيصر على عدد القوات التي استقدمها الملك معه استعادوا الثقة

بأنفسهم و ارتفعت معنوياتهم خاصة أن قيصر كان قد تلقى الدفعة الرابعة و الأخيرة من قواته المقدرة بأربعة آلاف (4000) من المشاة و أربع مائة (400) فارس و ألفا(1000) من رماة النبال و المقاليع . و هو ما استغله قيصر في الإقدام على خطوة جريئة تمثلت في قراره محاصرة تابسوس (Tapsus) و بذلك أجبر سكيبيو على الخروج من موقعه لنجدة هذه المدينة التي تقع على البحر و لا يمكن الوصول إليها برا إلا عبر برزخين يؤديان إليها في الجنوب و الغرب يقع احدهما شرقي مستنقع كبير و الآخر شمالي المستنقع انتقل قيصر ليلا إلى البرزخ الشرقي و أقام تحصينات في مدخله الجنوبي و زحف على تابسوس و اعتقد سكيبيو ان محاصرة قيصر في هذا الموقع كفيل له بضمان النصر فاتجه نحو البرزخ الشرقي حيث أوقفته تحصينات قيصر فترك هناك يوبا و اقوانيوس على رأس بعض القوات بينما لجأ هو على رأس معظم القوات إلى البرزخ الغربي ليلا و في فجر السادس من فبراير كان سكيبيو على بعد كيلومترين من قيصر و بذلك وصل نقطة لا تضمن له سلامة الانسحاب أما قيصر الذي توقع هذه المعركة فقد اتخذ كل الترتيبات و قام بهجوم خاطف اكتسح به قوات سكيبو الذي اجبر على التقهقر و انقلب بعد ذلك على اقوانيوس و يوبا الأول ، الذين لم يصمدا خاصة بعد ان علما بهزيمة سكيبيو و فراره من ميدان المعركة .

أكد قيصر بعد معركة تابسوس تفوقه الذي شعرت به المدن المجاورة و بدات تنظم إليه واحدة و الأخرى ففتحت اوتيكا الأبواب له ، وأعلنت تابسوس و الجم طاعتهما بعد فترة من الحصار ، كما استولى على اوزيتا التي كانت بها مخازن الأسلحة و المواد الغذائية ، إذ لم يفقد في هذه المعركة غير 50 مقاتلا مقابل عشرة آلاف قتيل عند خصومه .

تشتت أنصار بومبيوس بعد هذه المعركة بين الفار و المنتحر و الواقع في الاسر ، أما يوبا فقد تمكن من الإفلات من ملاحقة الأعداء بالسير ليلا و الاختفاء نهارا ، حتى أدرك زاما – ريجيا التي أغلق سكانها الأبواب في وجهه خوفا من تدميرها بعد ان اعد إمكانيات التدمير النهائي للمدينة في حالة الهزيمة قبل خروجه منها مما كان سببا في رفض سكان المدينة فتح الأبواب له و لم ينفعه معه لا الوعد ولا الوعيد.

فانسحب رفقة بتريوس (Betrius) إلى بيته الريفي ولم يبق له بعد ان استسلمت زاما-ريجيا لأتباع قيصر غير الانتحار وبانتحاره و استسلام العاصمة بولاريجيا شرع قيصر في ترتيب أمور إفريقيا . فحول الجزء الشرقي من نوميديا إلى ولاية رومانية عرفت بافريقية الجديدة ، تميزا لها عن الولاية القديمة فوضع سالوستيوس على رأسها ، بصفته قنصلا مخولا (Proconsul) أما الجزء المتبقي من نوميديا فقد اقتسمه بوخوس الثاني و سيتيوس جزاء مساعدتهما لقيصر فمد الأول بذلك حدوده من وادي الساحل إلى وادي لمساقا ، بينما حصل الثاني و أتباعه على مقاطعة ضواحي قرطا ، جعل منها قيصر حدا فاصلا بين مملكة بوخوص و إفريقيا الجديدة هذا قبل ان يغادر إفريقيا في اتجاه صقلية يوم 14 افريل سنة 46 ق.م .